هل نالت بلاد الحجر حقها من البحث والتوثيق ؟ (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس (الطبعة الأولى) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٢ هـ/٢٠٢٠ م). (الجزء الثامن عشر)، ص ص ٣٧٧ – ٣٨٢ .

ثانياً: هل نالت بلاد الحجر حقها من البحث والتوثيق؟[١]

بقلم أ. د. غيثان بن علي بن جريس

م	الموضوع	الصفحة
أولاً:	ما المقصود ببلاد الحجر ؟	٣٧٧
ثانياً:	هل نالت بلاد الحجر حقها من البحث والتوثيق ؟	٣٧٨
ثالثاً:	خلاصة القول	٣٨٠

أولاً: ما المقصود ببلاد الحجر :

ورد اسم الحجر في الكثير من كتب التراث الإسلامي[٢]، لكن الذين يعنيني في هذه الورقة هو الحجر بن الهنوء الأزدي[٣]، الذي تنتسب له قبائل رجال الحجر (بللحمر، وبللسمر ، وبنو شهر، وبنوعمرو)[٤]،وهذه القبائل الأربع أزدية قحطانية سكنت في بلاد السروات من شمال حاضرة أبها ، إلى جنوب بلاد بلقرن وما جاورها[٥] . واستيطانهم لهذه البلاد يعود إلى تاريخ ما قبل الإسلام بمئات السنين[٦]. وهم معروفون عند بعض مدوني التراث المتقدمين باسم(بلاد الحجر) أو (سروات الحجر) أو (السرو) أو (السرويون)[٧] ، واستمروا معروفين بهذا المصطلح حتى وقتنا الحاضر[٨].

---

(١) قدمت هذه الورقة في لقاء فرع الجمعية التاريخية السعودية بعسير، الذي عقد في النماص ، تحت عنوان :" بلاد الحجر في التاريخ والآثار) في يومي الأربعاء والخميس (٣-٤/٢/١٤٤١هـ الموافق ٢-٣/أكتوبر/٢٠١٩م).

(٢) للمزيد عن اسم الحجر يتم البحث في كتب الأنساب المتقدمة ، وهناك بعض التفصيلات في هذا النسب .

(٣) الحجر بن الهنوء الأزدي من كهلان بن يشجب بن سبأ بن يعرب بن قحطان . انظر: تفصيلات عند الحسن بن أحمد الهمداني. صفةجزيرة العرب (الرياض ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م) ، ص ٢٩٠، سلمة بن مسلم العوتبي الأنساب (سلطنة عمان، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ، ج٢، ص ٤٥-٤٧ .

(٤) سراة الحجر ، يطلق عليها أيضاً بلاد الحجر ، أو رجال الحجر ، تقع إلى الشمال من سراة عنز (سراة عسير) وموقعها بين بلاد عسير ، وبلاد بلقرن وشمران وعليان في الشمال، وبلاد شهران وبيشة في الشرق، ومحايل وبارق والعرضيات غرباً. معاصرة الباحث ومشاهدته خلال الثلاثين عاماً الماضية .

(٥) هذا الذي نشاهده اليوم ، وهم في هذه الأوطان منذ مئات السنين ، وربما نزح بعضهم إلى شرق أو غرب جبال السروات ، أو دخل بعض القبائل أو العشائر بعضها في بعض من باب التحالف أو غلبة القبائل الكبيرة على الصغيرة ، لكنه لم يثبت أنهم هاجروا من أوطانهم الحالية بعدما نزحوا إليها من اليمن منذ عهود قديمة . انظر غيثان بن جريس: بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٣-١٤هـ) . (الطبعة الرابعة) (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م) ، ص ١٩ وما بعدها .

(٦) للمزيد عن هجرتهم من اليمن واستيطانهم في بلادهم الحالية من تهامة والسراة ، انظر كتب الأنساب وبعض كتب التراث الإسلامي المبكرة .

(٧) كلمة (السرو) أو (السرويون) تطلق على جميع سكان السراة من الطائف إلى سروات عسير وقحطان ، وربما امتد هذا المصطلح إلى سروات صنعاء وصعدة وما جاورهما .

(٨) رجال الحجر ، أو بلاد الحجر مصطلح قديم مازال مستخدماً ومدوناً في الوثائق والسجلات الرسمية

ثانياً: هل نالت بلاد الحجر حقها من البحث والتوثيق ؟

واذكر الإجابة في النقاط الآتية :

١. تتنوع بلاد الحجر في تضاريسها وتركيبتها السكانية ومواردها الطبيعية منذ قديم الزمان ، ولذا فهي مأهولة بالسكان ، ولها تاريخ وحضارة منذ عصر ما قبل الإسلام وعبر عصور الإسلام المبكرة والوسيطة (ق١-ق١٠هـ/ق٧-ق١٦م) ، لكن هذا التاريخ غير موثق بصورة واضحة وجلية . فعندما نبحث عن أحوالها قبل الإسلام لا نجد إلا نتفاً قليلة تذكر بعض شعرائها ، وأحياناً أنسابها ، وربما وجدنا لمحات سريعة عن الحروب وأيام العرب قبل الإسلام ، ليست في بلاد الحجر على وجه الخصوص ولكن في عموم بلاد تهامة والسراة . ومن ثم فلا نملك حتى الآن صورة شبه واضحة لأرض وسكان هذه الأوطان[١] .

٢. ظهر الإسلام وانتشر في عموم شبه الجزيرة العربية ، وكتب السيرة والمغازي والتاريخ الحولي والموضوعي ، وبعض كتب الطبقات والرجال أشارت إلى مقتطفات محدودة جداً عن وصول الإسلام إلى بلاد تهامة والسراة ، وبلاد الحجر لم تنل حظاً وافراً من هذه المصادر ، فهناك نواح أخرى مثل بلاد غامد وزهران ، ونجران وأمكنة في منطقة عسير حظيت بمادة علمية أفضل مما حظي به الحجريون[٢] .

٣. منذ القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) إلى القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) نجد الستار مسدلاً على بلاد الحجر وعموم السروات وتهامة . ومن يفحص كتب التراث الإسلامي المبكرة في ميادين التاريخ ، ومعاجم اللغة والآداب والجغرافيا والرحلات ، وكتب الأعلام والرجال ،

الحديثة والمعاصرة . وأقول إن اسم (رجال الحجر) أو (بلاد الحجر) يستحق أن يصدر عنه بعض الدراسات وبخاصة في مدلولاته النسبية وتاريخه السكاني والجغرافي . بل إن منطقة رجال الحجر تهامة والسراة لم تخدم بحثياً عبر عصور التاريخ وتستحق أن يكتب عنها العديد من الكتب والبحوث العلمية الحيادية .

(١) بلاد السروات وتهامة ، الواقعة بين اليمن والحجاز ، مازالت بحاجة كبيرة إلى دراسات أكاديمية في شتى الجوانب ونأمل من أقسام التاريخ الموجودة في هذه البلاد أن توجه طلابها وبحوث أساتذتها لخدمة هذه الأرض وسكانها بحثياً وتوثيقياً .

(٢) وردت أمثلة قليلة وناقصة عن وصول الإسلام إلى بلاد الحجر ، وعن أوائل المسلمين الذين خرجوا من بلادهم لإعلان إسلامهم أمام الرسول (ﷺ) ، وهناك أقوال متضاربة عن وفد سلامان الذي يقال إنه جاء من سروات الحجر ، وروايات أخرى تقول من بلاد زهران ، ومثل هذه الروايات تحتاج إلى مصادر موثوقة ترجح الرواية الصحيحة .

والموسوعات وغيرها من المصادر المبكرة فإنه لا يجد إلا ومضات قليلة، فأحياناً يذكر اسم مكان ، أو بيت أو أبيات شعرية محدودة ، أو علم في آخر اسمه الأزدي ، أو الحجري أو غيرها من الألقاب التي لم يعش أصحابها في بلاد الحجر وإنما هاجر الآباء أو الأجداد إلى بعض الأمصار الإسلامية . ومازالت مثل هذا الأعلام أو الأسر تحتفظ باسم القبيلة أو العشيرة دون أن يكون هناك صلات مباشرة مع هذا الوطن الأم[١].

٤. كتب الجغرافيا والرحلات هي أكثر المصادر التي يوجد بها بعض المادة العلمية عن بلاد الحجر، وأفضل هذا الصنف على الإطلاق كتاب: **صفة جزيرة العرب** ، لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني فقد دون حوالي ثلاث صفحات عن سروات وتهامة الحجر خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وذكر بعض الصور التاريخية والحضارية لهذه البلاد . وجاء بعده ابن جبير وابن المجاور ، وابن بطوطة فذكروا معلومات عامة عن بلاد السروات الممتدة من بلاد ظهران وقحطان إلى الطائف ، ولم يكن لبلاد الحجر فيها ذكر مخصوص كما فعل الهمداني[٢].

٥. يوجد في التواريخ المحلية للحجاز وفي اليمن وبخاصة المصادر الزيدية بعض الشذرات التي تذكر تاريخ السروات من اليمن إلى الحجاز خلال القرون الإسلامية الوسيطة، وأحياناً تذكر بعض المواقع أو الأقوام أو الأحداث في سروات أو تهامة الحجر، لكنها قليلة ولا تعطي القارئ صورة واضحة. ولهذا بقيت القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة في بلاد الحجر بل عموم السروات وتهامة غير مخدومة عند المؤرخين والمؤلفين المتقدمين[٣].

---

(١) من يطالع كتب الطبقات والتراجم والأعلام والسير يجد أعلاماً كثيرين في آخر أسمائهم الحجري ، أو الأزدي، أو الشهري، أو الأحمري، أو الخثعمي وهكذا ، وهؤلاء عاشوا في العراق ، أو الشام ، أو مصر ، أو شمال إفريقيا ، أو الأندلس ، أو بلاد فارس وليس لهم علاقة ببلاد الحجر ، اللهم إلا هذا اللقب ، وجاء بعض الباحثين المتأخرين ونسبوهم إلى قبائل وعشائر في السروات أو تهامة وليس لديهم دليل قاطع في انتسابهم إلى هذه الأوطان اللهم إلا اللقب الذي في آخر اسمه ، ومثل هذه الأقوال مازالت ناقصة وتحتاج إلى بحث أعمق وأفضل .

(٢) للمزيد عن المصادر الجغرافية التي ذكرت بلاد الحجر والسروات في القرون الإسلامية ، مثل :معجم البلدان لياقوت الحموي، ومعجم ما استعجم للبكري ، ورحلة ابن جبير ، وتاريخ المستبصر لابن المجاور وغيرهم . انظر القسمين الأول والثاني من كتاب : بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) . (الطبعة الثانية) (١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م) ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) لا تخلو المصادر المحلية في الحجاز واليمن من إشارات سياسية وحضارية لبلاد السروات وتهامة الممتدة من الطائف ومكة المكرمة إلى جازان ونجران ، لكن بلاد الحجر ذكرها قليل ومحدود جداً في هذه المصادر.

٦. جاء العصر الحديث ، وجرت على بلاد تهامة والسراة أحداث تاريخية وحضارية متنوعة ، وكانت القبيلة ، كما كانت خلال العصر الإسلامي المبكر والوسيط ، هي صاحبة الحل والعقد في بلادها[١]. ودخلت بلاد الحجر وغيرها من بلاد السروات معترك الحياة السياسية واتصلت بالقوى السياسية في الحجاز أو عسير أو نجد وبدأ يظهر لها ذكر ومشاركات في تلك الأحداث ، ثم جاء النفوذ العثماني في النصف الثاني من القرن (١٣هـ/١٩م) ومد سلطانه على عموم منطقة عسير ، وكانت بلدة النماص قاعدته الرئيسية في بلاد الحجر[٢] ، ثم جاء بعده حكم الدولة السعودية الثالثة، وأصبحت هذه البلاد جزءاً من كيان المملكة العربية السعودية[٣]. وفي القرون الثلاثة الماضية ذكرت بلاد الحجر في الكثير من الوثائق والسجلات غير المنشورة ، بل ظهرت بعض الكتب والمقالات والبحوث المطبوعة المنشورة عن سروات وتهامة الحجر، لكن الأعمال الجادة والرصينة فيها قليلة ، فالبعض من هذه الدراسات مقصورة على مكان أو حدث معين، وأخرى ناقصة ومصادرها ومراجعها غير دقيقة، وأحياناً لا تخلو من التعصب أو العنصرية لمكان أو قضية دون أخرى ، وأمور أخرى عديدة يصعب حصرها في هذا المقام[٤].

ثالثاً: خلاصة القول :

وبعد هذا الإيجاز المختصر نجد أن بلاد الحجر بل عموم السروات وتهامة لم تحظ بالخدمة البحثية الوافية والدقيقة الرصينة ، وهناك بعض التوصيات والنتائج التي أسردها في النقاط الآتية :

---

(١) بقيت القبيلة هي المهيمنة على بلادها عبر أطوار التاريخ القديم والوسيط والحديث حتى ثمانينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) ، ثم جاءت المؤسسات الإدارية في عهد الدولة السعودية الحديثة فحلت محل القبيلة في إدارة أحوال البلاد .

(٢) عصر النفوذ العثماني في عموم السروات وتهامة مازال من الموضوعات الجديدة ، ويستحق أن يدرس في عشرات الكتب والدراسات والرسائل العلمية .

(٣) هناك بعض الدراسات الحديثة فصلت الحديث عن دخول عموم السروات وتهامة تحت حكم الدولة السعودية الحديثة . ومازال هناك الكثير من الوثائق الجديدة التي لم تدرس في هذا الباب والواجب جمعها ودراستها في كتب ورسائل علمية .

(٤) هناك الكثير من الكتب والبحوث التي صدرت خلال الستين عاماً الماضية ، وفيها معوقات كثيرة مثل النقص ، والخلط والاضطراب ، وعدم قيامها على مصادر صحيحة وموثوقة ، وأحياناً لا يخلو بعضها من التعصب لناحية أو قوم أو موضوع بعينه.

١. إن المصادر التقليدية التي بين أيدينا لا تفي بالغرض لإعطاء صورة واضحة عن تاريخ وحضارة سروات وتهامة الحجر قبل الإسلام ، وخلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة . والأمل أن نعثر في قادم الأيام على مخطوطات أو مصادر تطلعنا على صفحات جديدة من تاريخ وحضارة هذه البلاد . كما أن الدراسات الأثرية مهمة جداً فهناك الكثير من الآثار المدفونة في هذه البلاد ، ناهيك عن الآثار السطحية المتمثلة في النقوش ، والرسومات والطرق القديمة ، والكهوف، والمقابر، والأحمية وغيرها فقد نستدل من خلالها على تواريخ وحضارة لهذه البلاد خلال العصر الإسلامي المبكر والوسيط[١].

٢. مازال هناك الكثير والكثير من الوثائق والمدونات والسجلات الحديثة غير منشورة ، وهذه مصادر أولية ومهمة في تصوير تاريخ وحضارة هذه البلاد في العصر الحديث وبخاصة منذ القرن(١٢هـ/١٨م) حتى وقتنا الحاضر، والعثور على هذا النوع من المصادر سهل والوصول إليه يسير[٢]. ويجب على الباحثين والجامعات المحلية أن تساهم في خدمة ودعم وتشجيع مثل هذه الأعمال العلمية القديمة والحديثة ، وهذا يعد من مسؤولياتها وواجباتها لخدمة الأرض والناس.

٣. من خلال البحث في هذا الموضوع ، وجدت الفقر العلمي والبحث هو الإطار العام وبخاصة في القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة . أما في العصر الحديث فإن بلاد بني شهر ، وقاعدتها النماص ، قد حظيت بالنصيب الأكبر في البحوث المطبوعة والمنشورة ، ناهيك عن الوثائق والسجلات غير المنشورة فمازالت تتصدر هذه المصادر[٣] . في حين أن بلاد بني عمرو حظيت هي الأخرى ببعض الذكر ، أما بلاد بللحمر وبللسمر فهي فعلاً مغيبة وغير مخدومة لا في العصر

---

(١) إن الدراسات الأثرية من المصادر القوية في موضوعاتها إذا خدمت من قبل أساتذة متخصصين جادين في علومهم . ومن يسخر الأثر في خدمة البحث العلمي فإنه سوف يحصل على نتائج جيدة ، ربما تغير الكثير من المعلومات المدونة في المصادر التراثية التقليدية .

(٢) نعم الوثائق في العصر الحديث متوفرة والحصول عليها سهل لمن يجتهد ويبذل قصارى جهوده للوصول إلى الحقيقة . وهناك وثائق رسمية في أمكنة وأراشيف حكومية ، وأخرى في وثائق خاصة عند أفراد وأسر في طول البلاد وعرضها .

(٣) حظيت بلاد بني شهر بذكر كبير في الوثائق خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) لأنها كانت قاعدة بني شهر ، وظهرت فيها أسرة العسابلة التي تتولى مشيخة قسم سلامان من بني شهر وكانت ومازالت على صلات بالحكومات التي قامت في الحجاز أو عسير او المملكة العربية السعودية ، وموطن هذه الأسرة بلدة النماص ولهذا ذكرت هذه الأسرة وبني شهر في الكثير من الوثائق .

القـديم أو الحديـث والمعاصر[١] . ومثل هذه الأمر يجـب أن يُلتفت له من أبناء هذه البلاد ، ومن الباحثين والمؤرخين النزيهين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على رسوله الأمين .

(١) بـلاد بنـي عمرو أقـل ذكراً في المصـادر والمراجع والوثائق ، وبـلاد بللسمر وبللحمر لا نجـد لهما ذكراً في المصـادر الحديثـة ، وهـذا لا يعنـي أنه لم يكن لهـا تاريخ ، لكن الإهمـال وعدم خدمتها مـن أبنائها ومن الباحثين أحد الأسباب الرئيسية في غياب تدوين وحفظ تاريخها